١١ محمد بن أبى بكر الصديق أول رأس تذبح بيد مسلم

فى رسالةمن أمير المؤمنين الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، إلى عامله واليه الجديد على مصر محمد بن أبى بكر قال فيها: «. . . واعلم يامحمد أنى قد وليتُكَ أعظم أجنادى: أهل مصر. . وولیتك من أمر الناس، فأنت محقوق أن تخاف فيه علي نفسك، وتحذر منه على دينك، ولو كان ساعة من نهار، فإن استطعت ألا تُسخط ربَّكَ لرضَا أحد من خلقه فافعل، فإن فى الله خلفاً من غيره، وليس فى شىء منه. فاشتد على الظالم. ولنْ لأهل الخير وقربهم إليك، واجعْلهم بطانتك وإخوانك. .».

فى هذه الكلمات القليلة التى تشبه خطاب التكليف بالمسئولية فى النُّظُم السياسية الحديثة. نلمح مدى ثقة أمير المؤمنين الإمام على فى واليه محمد بن أبى بكر. . تلك الثقة يمكن استشعارها من مجرد اختياره لولاية مصر، وهى أكثر الولايات أهمية، فضلا عن أنها تمثل خطراً على الدولة الإسلامية فى وضعها الراهن وقتئذ، حيث تريد الفتنة أن تقتلع كل شىء عظيم أنجزه السلف العظيم. ومن هنا ندرك أن الوالى الجديد لابد أن يكون أهلاً لتحمل هذه المسئولات الجِسَام، فمن هو محمد بن أبى بكر والى مصر الجديد؟

لقد اختلف الرُّواةُ والمؤرخون فى أمر صُحبته للرسول ﷺ، فمنهم مَنْ كان يعده ضمن صحابته، لأنه وُلد فى عام حجة الوداع، ومنهم مَنْ لم يعده ضمن هؤلاء الصحابة الأجلاء، وإنما هو من التابعين الكرام. . ذلكم هو التقى النقى، المكافح المنافح محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما الذى تولى أمر ولاية

مصر فى خلافة على بن أبى طالب كرم الله وجهه، فى عام ٣٨ هـ، ولم يتجاوز الثلاثين.

ورث عن أبيه خليفة رسول الله ﷺ أبى بكر الصديق الكثير من السمات والشمائل، فكان كثير العبادة والنُّسك صوَّاماً قوَّاماً، صادق الوعد والعهد، ولعل محمدا أورث هذه الصفات الطيبة لإبنه القاسم من زوجته عاتكة بنت زيد الذى كان يكنى به، حيث كان القاسم من أكبر علماء زمانه حتى اعتبر من فقهاء المدينة السبعة.

ولاشك أن اختيار الإمام على كرم الله وجهه لمحمد بن أبى بكر لهذه المهمة الصعبة التى ينوء بها كاهل صناديد الرجال يؤكد كفاءة نادرة، وصدقاً فريداً لهذا الشاب التقى النقى، وأى مهمة تماثل صعوبتها تولِّى أمر مصر وقتئذ؟ وقد كانت ولا تزال ـ باب المشرق العربى الإسلامى من ناحية، وأنها.. أى مصر ـ كانت وقتئذ كمثل كرة من النار تتأهب للانفجار بسبب قرار قتلة عثمان بن عفان إليها واختفائهم بها من ناحية أخرى، أى مهمه تماثل هذه المهمة؟

والحق أن محمداً كان جديراً بثقة الإمام على، كرم الله وجهه، لولا أن مخالفيه ـ وكانوا من دهاة الحرب والسياسة ـ اقتنصوه من حيث فضيلته.. فضيلة الصدق والمواجهة، لا أسلوب المكر والمراوغة.

وواضح من ثقة الإمام على كرم الله وجهه فى ذلك الشاب التقى النقى محمد أن الأخير كان من الموالين للإمام فى الصراع الدائر بينه وبين معاوية بن أبى سفيان بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه، واستغلال معاوية هذا الأمر لصالحه ولصالح ذريته من بعده.

كان على الإمام علىٍّ كرم الله وجهه أن يختار لمصر أكثر الناس إخلاصاً وصدقاً، لقربها من منطقة الخطر التى كان يتربع عليها معاوية فى الشام، فلم يجد أفضل من محمد للاضطلاع بهذه المهمة التى بدأها فى نصف رمضان سنة ٣٨هـ خليفة لقيس بن سعد بن عبادة الذى كان والياً على مصر وعزله الإمام على بفعل المكيدة التى صنعها معاوية، والتى أطاحت به بدون سبب أو إساءة. وبرغم ذلك فإن قيساً رضى الله عنه لم يبخل على خليفته محمد بن أبى بكر رضى الله عنهما

بالنصح، لسببين أولهما: إخلاصه وإيمانه.. وثانيهما: خوفه على ذلك الشاب التقى النقى من مكر وخديعة معاوية بن أبى سفيان.

قال قيس لمحمد بن أبى بكر لحظة تسليمه ولاية مصر: «لايمنعنى عزله ـ يقصد الأمام علياً ـ إياى من نُصحى لك. ولقد عزلنى عن غير وهن ولا عجز، فاحفظ ما أُوصيك به يَدُمْ صلاح حالك».

ثم قال:

دع ابن مخلَّد، وابن خديْج، وابن أرطأة.. ومن ضَوَى إليهم ـ وقد كانوا جميعاً من المطالبين بدم عثمان، المتمردين على الإمام على ـ فإن أتَوْكَ فاقبلهم، وإنْ تخلَّفوا عنك فلا تطلبهم، وأَنْزِل الناسَ منازلهم، فإن استطعت أن تعود المرضى، وتشهد الجنائز، فافعل، فإنَّ هذا لا ينقصك. إنكِ والله ما عملت لتظهر الخيلاء وتحب الرياسة والله موفقك».

كان قيس صادقاً يقصد من النصيحة الأولى أن لا يجعل محمد بن أبى بكر يدخل فى حرب مع المصريين، يدبرها ويخطط لها من الشام معاوية بن أبى سفيان. وأما النصيحة الثانية مؤداها أن يتودد إلى المصريين فيعود مرضاهم أو يشترك فى جنائزهم، خصوصا وأن محمد ليس من المختالين الفخورين الراغبين فى الملك أو الرياسة.

وبرغم صدق قيس بن سعد الذى أكدته الأحداث فيما بعد، عمل محمد بن أبى بكر بعكس ما أوصاه به، بسبب مكيده صنعها معاوية مؤداها أن قيساً متواطئ مع الثلاثة المتمردين على أمير المؤمنين، وأشاع ذلك بين الناس، بشكل جعل محمداً يصدقه، فيحقق لمعاوية هدفه فى الإستيلاء على مصر، بل والنيل منه بقتله.

كيف كان ذلك؟ لندع الأحداث تجيب عن ذلك.. لقد بعث محمد بن أبى بكر إلى هؤلاء الثلاثة ومن معهم من المتمردين يدعوهم إلى بيعته وبيعة أمير المؤمنين، فلم يجيبوه، وهنا بعث إلى دورهم الجند فهدموها ونهبوا ما فيها، وسجنوا ذريتهم، فنصبوا له الحرب، حيث تمركزوا فى البحيرة، فهاجمهم، وكان القتالُ شديداً، وفيه ضعفت قوات محمد بن أبى بكر، لأنها حاربت المتمردين، وهم

آلاف، مضافا إليهم مدداً مستمراً يبعثه معاوية ويقوده عمرو بن العاص بكل ما أوتى من دهاء وتمرس ومعرفة بمصر التى كان أول من دخلها.

وهكذا ما كان لقوات محمد أن تصمد أمام هذه الجحافل الجرارة، وما كان منه إلا أن يقصد داراً خربة يختفى فيها فيتعقبه ابن خديج ويضرب عنقه ويفصل رأسه عن جسده. ليدخل هذا الجسد فى جوف جمار ميت بوحشية نادرة عجيبة، ولم يكفه ذلك، بل طاف بهذه الرأس الطاهر فى الشوارع، ليدعه بعد ذلك مع حطام أساس داره فى إهمال واستهتار، لا يراعى حتى حرمة الموت.

ظل الإمام على كرم الله وجهه أياماً لأُيَرى إلا حزيناً مغلوباً على أمره، حتى قال له بعض أصحابه: لقد جزعت على محمد يا أمير المؤمنين. فقال: «وما يمنعنى؟ إنه كان لى ربيباً، ولابنىَّ أخا، وكنتُ له والداً، أعده ولداً».

ولم تستمر ولاية محمد بن أبى بكر لمصر أكثر من خمسة أشهر، ولم يبق منه سوى هذا الرأس الذى استطاع مولي له يدعى «زماماً» أن يدفنه فى المكان المقام به المسجد المسمى باسمه بمصر القديمة.

وهكذا كان رأس محمد بن أبى بكر أول رأس يُطاف به فى الإسلام، فقد سبقت رأس الإمام الحسين بثلاثة وعشرين عامًا. ومن عجيب الأمور أن يكون قتلة الأثنين ـ محمد بن أبى بكر الصديق، والحسين بن على بن أبى طالب ـ من بنى أمية وأن يكونك الدافع للقتل واحدًا هو تحويل الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض لمعاوية ولأبنائه من بعده.

وحين علمت أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنهما بما حدث لأخيها كظمت غيظها حتى نزفت دما. ثم بكت أحر بكاء، وصرخت تلعن معاويه بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن خديج، وضمت إليها أولاد محمد، وحرصت على نفسها الشواء أبدا، فلم تأكله حتى توفيت.

وظلت كلما تعثر قدمها تقول: «تعسا لمعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن خديج» وتعودت أن تدعو عليهم عقب كل صلاة، وتتضرع إلى الله عز وجل أن يعاقب قتله شقيقها محمد بن أبى بكر.

وأما معاوية بن أبي سفيان فقد صعد منبر المسجد بدمشق وأذن بالناس للصلاة معلنا قتل محمد بن أبي بكر. وكأنها بُشْرَى يُبَشِّرُ بها أهل الشام... ثم قرأ عليهم كتاب عمرو بن العاص الذى كان قد بعث به بعد مقتل محمد بن أبى بكر. وفيه يقول: «أما بعد؛ فإنّ لقينا محمد بن أبى بكر، وكنانة بن بشر، فى جموع جمَّة من أهل مصر، فَدعوْنَاهُم إلى الهدى والسنة وحكم الكتاب، فرفضوا الحق، فجاهدناهم، واستنصرنا الله عليهم، فضرب الله وجوههم وأدبارهم، ومنحونا أكتافهم، فقتل الله محمد بن أبى بكر، وكنانة بن بشر، وأماثِلَ القوم. والحمد لله رب العالمين..».

ونقل ذلك صاحبٌ لعلىٍّ كرم الله وجهه كان قد جاء من الشام فقال لعلىٍّ: «والله يا أمير المؤمنين، ما رأيت قط قوماً أَسَرَّ، ولا سروراً قط أظهر من السرور الذى رأيته بالشام حين أتاهم هلاك محمد بن أبى بكر..». فردَّ علىٌّ رضى الله عنه: «أَما إنَّ حزننا عليه على قَدْرِ سرورهم به.. لا، بل يزيد أضعافاً..».

والحق أن محمدَ بْن أبى بكر كان من خيرة الرجال الذين يناصرون الحق أينما كان، ولا عجب، فهو لابن الصِّدِّيق أبى بكر رضى الله عنه، وإذا كان قد أخطأ هذا الخطأ الذى أطاح بحياته، فإنه ولاشك بوازع من إيمانه وصدْق نواياه، إذ كيف يطيب له أن يضع يده فى أيدى من شقوا عصا طاعة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ونعنى بهم مَنْ أوصاه قيس بن سعد بعدم استعدائهم؟ ثم كيف يطيب له عيشٌ مع معاوية وعمرو بن العاص، وكلاهما من الدهاة فى الحرب والسياسة، يخططان للإطاحة به وقتله؟! لقد كان محمد بن أبى بكر ضحية فضيلة من فضائل دينه، وهى العمل على طاعة أولى الأمر.

* * *